علم انفرد به المسلمون

يمتلك التراث الإسلامي ميزةً فريدة تتمثل في علم الرجال؛ وهو علم يُعنى بدراسة أحوال الرواة — رجالاً ونساءً — الذين نُقل عنهم العلم الشرعي. ويهدف هذا العلم إلى التمييز بين من تُقبل روايته ومن تُرد، وفق معايير دقيقة تقوم على:

العدالة (الاستقامة الأخلاقية)، والضبط (الدقة في الحفظ والنقل).

ثناء المستشرقين وشهادات المنصفين

لقد أثار هذا الانضباط المنهجي إعجاب عدد من الباحثين الغربيين والمستشرقين؛ إذ لم تُعرف حضارةٌ أخرى اعتنت بتوثيق نصوصها بهذه الدقة.

ومن الشهادات المشهورة ما ذكره المستشرق النمساوي ألويس سبرنجر، إذ قال:

"لم ترَ الدنيا، ولن ترى، أمةً مثل المسلمين؛ فقد سجّلوا أسماء وأحوال مئات الآلاف من الرواة لضمان صحة الحديث النبوي."

وقد دفع هذا بعض الباحثين من غير المسلمين إلى التمني لو وُجدت لديهم مثل هذه "المصفاة العلمية" لتمحيص نصوصهم الدينية من الدخيل والموضوع.

المنهج الأثري مقابل التأويل الفلسفي

بفضل هذه القواعد، تميّز المنهج الإسلامي بالأصالة، وابتعد عن مسلكين شائعين:

الإقحام الفلسفي: لم يُخضع العلماء النصوص للمنطق الفلسفي، بل جعلوا النقل الصحيح هو الأصل، لأن النص عندهم محكوم بسياق النقل الصحيح لا بالهوى العقلي.

التوافقات المتكلّفة: فلم يلجؤوا إلى تطويع النصوص لتوافق أفكاراً سائدة، بل اعتمدوا على الإسناد، الذي قال فيه عبد الله بن المبارك:

"الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء."

وقال الإمام البيهقي رحمه الله:

"من جمع بين الرواية والدراية كان بيانه أوثق، ومن قصر في أحدهما ظهر ذلك في كلامه مهما تزيّن بألقاب العلم."

"إنَّ هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم"

لذلك، علينا كمسلمين الاهتمام عمن نأخذ هذا العلم لصلاح ديننا، تماماً كاهتمامنا بمن نأخذ منه الدواء لأجسادنا.